توظيف الأمثال في شعر معروف الرصافي

م . م عبد الحميد هايس مطر
جامعة الانبار/ كلية الزراعة
م . د كمال عبد ناصر
جامعة الانبار/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

الخلاصة

قد يكون هناك بعض الشعراء هم أكثر تمكنا وشاعرية من الرصافي ، لكن ما ميّز الرصافي عن غيره، وجعل شعره أكثر انتشاراً وقتذاك ، هي شوارده وأمثاله وحكمه التي تمتلئ بها قصائده ، منها الثقافة الأدبية ولا سيما الأمثال التي لا يمكن لأي شاعر فطن الاستغناء عنها في تعزيز نصوصه بها ، سواء كان ذلك بوجه صريح او خفي على وفق دلالات معينة، ويهدف بحثنا الى الكشف عن اثر هذا النص في شعر معروف الرصافي تحت مصطلح التوظيف، الذي يقر بأنَّ النص الشعري تتداخل فيه نصوص أُخر يستوعبها ويتفاعل معها، مما يؤثر في بنيته ودلالته فضلاً عن موسيقاه.

الكلمات المفتاحية: توظيف الأمثال ، الرصافي، شعر الرصافي

The use of proverbs in the poetry of Maaruf AlRusafi

Abdul-Hamyd Hays Muter and Kamal Abed Naser

Abstract

There may be some poets who are more empowered and poetical, but what distinguished Al-Rusafi, and made his poetry more widespread at the time. They are his anomalies, proverbs and wisdom that are filled with his poems, including literary culture and proverbs that no discerning poet can do without, whether in general, under certain conditions, and this aims to display staging models under functional operating conditions, Who acknowledges that the poetic text is intertwined with other texts, comprehends and interacts with it, Which affects its structure and connotation.

Keyword: Employ proverbs, Al-Rusafi, Rusafi poetry

التمهيد :

إن الحِكم والأمثال العربية رصيد ضخم من الحكايات والقصص والأفكار تناقلتها الألسن شفاهاً ، ثم دونت في مصنفات أدبية خاصة ، وقد أفاد منها الأدباء والكتاب على امتداد عصور الأدب العربي ، ومن هنا تعامل الرصافي مع هذا الموروث الثري بمهارة وذكاء وتمكن من انتقاء الانموذجات التراثية منه ولا سيما تلك التي تحمل الدلالات البدوية الموغلة في القدم ذات الاستعمالات القليلة والنادرة ، كما سنرى ذلك في استعراضنا لبعض منها ، مضيفاً عليها لمسات عصرية تخفف من غرابتها وتزيل عنها بعض اثار الإبهام والقدم .

إن موهبة الشاعر الفنان هنا تكمن في قدرته على توظيف تلك الحِكم والأمثال في نسق شعري حديث ينسجم في دلالته المعنوية والنفسية مع الدلالات الأصلية التي تضرب من اجلها تلك الأمثال وهذا ما نجح فيه شاعرنا بشكل لافت للنظر من خلال حرصه الشديد على استثمارها بما ينسجم مع تجاربه الشعرية المتعددة .

احتلت الأمثال مكانة كبيرة في شعرنا العربي من الجاهلية إلى يومنا هذا ، وهي إحدى الوسائل الفنية التي استثمرها الشعر العربي قديماً وحديثاً ، ليتمكن الشاعر بوساطتها من تجسيد رؤياه الشعرية إذ أن المثل يمنح الشاعر قدرة على إفراغ الطاقة النفسية والفنية الكامنة فيه .

لقد أفاض العلماء في الحديث عن الأمثال والحِكم فلسنا بحاجة إلى أن نردد ما قيل ، فالمثل لا يختلف من لغة إلى لغة أخرى ولا من أدب لأخر ، فأكثر المعاجم العربية تشير إلى أن المثل (provebe) هو جملة خيالية ذائعة الاستخدام ، تدل على نطق التجربة او النصيحة او الحكمة ، يرجع اليها المتكلم عند الحاجة إليها ، لأنها تصور حياة المجتمع بصدق ، ودقة معناها وتصيب الغرض المنشود ، وقديماً عرفوا المثل بأنه ((حكمة شعبية تتداول على الألسنة ، أو جملة غالبا ما تكون قصيرة ، تعبر عن حدث ذي مدلول خاص ، لكن يبقى على المجتمع تخمينه)). [١]

ويبقى يضرب في حالات مشابهة لمورده الأصلي ، كما يظل مثلا يضرب ، وان جهل أصله ، ولا يتغير لفظه في أية حاله من الحالات استعماله ، ولكنه يستعمل مجازياً في سياقات مختلفة ، غير أن علاقته بتلك السياقات الخاضعة لقواعد دلالية خاصة .

وبعد فمن اجل ان يتوصل الإنسان مع ما يحيط به من أمور كثيرة ، وأسرار مكنونة ، لا يمكن الإلمام بها جميعا ، أو أهمية ما هو كائن وما سيكون ، فقد ضرب الله تعالى في كتابه الكريم الأمثال للناس ، لكي يفهم ما يدور حوله من أمور الكون ومدركاته ، ويحكم العقل في كل ما يقال ويذاع على مسامعنا فقال تعالى ((وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) . [٢] فوجه بهذا الخطاب عقول الناس للتفكر في أسرار الحياة ، ومكنوناتها التي تدور حوله واخذ العبرة والحِكم منها .

ولقد اهتم الباحثون والدارسون في الأدب العربي بالأمثال قديماً وحديثاً ، لأنها تعتبر مهل من مناهل الشعر ، وقدرتها على إيصال المعاني بإيجاز ودقة في التعبير والتشبيه ، وبذلك يكون المثل اكثر فهما وأشد تأثيراً واقدر على الاستماع والتقبل من سامعيه .[٣]

١-- ينظر : مقارنة دلالية بين الأمثال العربية والأمثال العامية ، علاء إسماعيل الحمزاوي ، كلية الآداب ، جامعة الامينا ، ط١ ، مصر ، القاهرة ، ١٩٩٧ : ١ .

٢ – سورة الحشر: الآية ٢١ .

٣ – ينظر المثل في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ، بشار خلف عبود ، رسالة دكتوراه ، كلية التربية ، جامعة الانبار ، ٢٠٠٤ : ٩

ولأهمية الأمثال في حياتنا يجب الإشارة بشكل مختصر إلى ماهية الأمثال من الناحية اللغوية والأدبية للتعرف عن كتب على أحوال الأمثال بصورة أدق .

المثل لغة :

ذكر اللغويون معاني عديدة للجذر اللغوي (مثل) الذي اشتقت منه التسمية (الأمثال) منها : (المِثل : الشبه . يقال مِثل ومَثل وشِبه وشَبَه بمعنى واحد ، ... والمَثل والمثيل : كالممِثل والجمع أمثال ، ...والمَثل : الشي الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مِثله) .[١]

وجاءت لفظة ((مثل)) في قوله تعالى ((مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ)) . [٢] فإنه سبحانه وتعالى ذكر الكفار ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ثم ذكر المؤمنين ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم فوصفهم بعبودية الظاهر وبالباطن جعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه فشبهه بمن بصره أعمى عن رؤية أحق الأشياء وسمعه أصم عن سماع الأصوات والفريق الآخر بصير القلب سميعه كبصير العين وسميع الأذن فتضمنت الآية قياسين و تمثيلين للفريقين ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله ((هل يستويان مثلا)) .[٣]

المثل اصطلاحاً :

الأمثال هي ((تراكيب لغوية ذات دلالة خاصة تُفهم من مجموع الألفاظ التي وضعت في تركيب خاص بها يتداوله الناس من دون تصدَّقِ فيه ، الا قليل ، ويعد قالباً لفظياً ثابتاً)) . [٤]

ونلحظ ان المعنى الاصطلاحي للأمثال مستمد من الواقع اللغوي لمادة (مثل) التي ذكر اللغويون لها معاني عديدة كانت المعجمات محلها إلا إن بن منظور (ت ٧١١ هـ) ذكر في معجمه كل المعاني التي تضمنتها اغلب المعجمات السابقة وأضاف إليها معاني أخرى . واهم هذه المعاني التي ذكرها : الشبه ، والصفة ، والعبرة ، والحديث نفسه ، والمثال . [٥]

وللأمثال أهمية كبيرة في الدرس اللغوي ، فقد عدَّها علماء اللغة والنحو والشعر من مصادر الاستشهاد اللغوي . [٦] ، وهي تمثل الواقع اللغوي للمتكلمين خير تمثيل ، فالنتاج اللغوي لأبناء أي جماعة لغوية إما ان يكون شعراً او نثراً ، ولما كانت لغة الشعر خاصة تراعي فيها قوانين الشعر الخاصة من الوزن والقافية وتراعي الضرورة الشعرية ، ويبقى أنواع الكلام المنثور يمثل لغة الكلام والأداء اللغوي .

---

١ – لسان العرب ، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار النشر: دار صادر ،ط١، بيروت ، (مثل) : ١١ / ٦١٠ – ٦١١ .

٢ – سورة هود : الآية ٢٤

٣ – الأمثال في القرآن الكريم، تأليف : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: إبراهيم محمد ، دار النشر : مكتبة الصحابة ، ط١، طنطا ، مصر ، ١٤٠٦ هـ :: ١/ ١٣.

٤– التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: الدكتور محمود عكاشة، ط١، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م : ١٩٤ .

٥ – ينظر لسان العرب (مثل) : ١١/ ٦١٢ .

٦ – ينظر مدرسة الكوفة : ٥٢ ، التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة : ١٩٤ .

وحرص علماء العربية على جمع الأمثال ، وتبويبها ، وشرح الأمثال وتفسيرها وما ورد فيها من ألفاظ وذكر مناسبة المثل وقصته ، وذكر اسم صاحب المثل او قائله ان تمكنوا من معرفته ، فضلاً عن تناولهم الاقوال المأثورة التي تمثّل بها الناس في خطابهم ، فصارت هذه الأقوال المأثورة أمثالاً بعد ان استعملها الناس في كلامهم اليومي الأمثال ، وأشار اللغويون إلى أن الأمثال قوالب لفظية جاهزة او تراكيب ثابتة ، قال السيوطي ((الأمثال لا تغيَّر ، بل تجري كما جاءت ، فالعرب تجري الأمثال على ما جاءت ، والأمثال قد تخرج عن القياس ، فتحكى كما سُمِعت ، ولا يطرد فيها القياس)) . [١]

وأهمية الأمثال تحدث عنها علماؤنا الأوائل ومنهم ابن المقفع (ت ١٣٨ هـ) الذي ذكر أهمية المثل فقال : ((إذا جُعِل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، واثبت للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث)) .[٢] ، وقال إبراهيم النظام (ت ٥٣٨ هـ) ((يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة)) . [٣]

وقد امتازت الأمثال بخصائص عامة في بنيتها اللغوية والمعرفية منها :

١- أصالتها : فهي عربية المنشأ ، مع انها ليست خاصة بالعرب فقط ، لأنها تتماز بالقيم والتقاليد الأصيلة ، لتلك الشعوب .

٢- واقعيتها : فهي تتماز بواقعيتها التي أفضتها السيرورة في ما بينهم ، ذلك لتميّز الحياة المجتمعية العربية عموماً بالواقعية .

٣- بلاغتها : كما تتماز أمثلتهم بإيجاز اللفظ وتركيزه ، وبإصابة المعنى وبعد المغزى . [٤]

٤- موسيقاها : لا تخلو من الرشاقة اللفظية ، ففيها جرس موسيقي وتناغم بين ألفاظها وتناسق بين الجمل والتراكيب ، وتجانس بين الأحرف ، وتأتي الأمثال أما على السجع والفاصل ، او من اختيارها للأحرف المتجانسة ضمن الكلمات ، والكلمات المتوافقة ضمن الجمل ، كما تتماز بالتوازن فانقسم المثل إلى شطرين متوازنين مما جعل للجمل إيقاعاً مناسباً فيزيد من جمالية ذلك السجع . [٥]

٥- أغراضها : تعكس بصدق مشاعر الشعب وأحاسيسه ، وأماله ، وآلامه ، وأفراحه ، وأحزانه ، وتفكيره ، وفلسفته ، وحكمته ، ومن خلالها نستكشف اراءه في مختلف شؤون الحياة وموقفه منه ونظرته إلى الكون وتفسيره لظواهره .

وهناك أمثال كثيرة بنيت على خرافة أو أسطورة او حكاية من الحكايات المختلفة الدائرة على السن الناس وهناك من يصنف الأمثال وفقا للغة التي وصلت الينا بها ، او وفق العرض الذي قيلت من اجله (علمي ، اجتماعي ،

---

١ – المزهر في علوم اللغة وانواعها : جمال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، شرح وتعليق محمد احمد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي وشركاه ، مصر ، د. ت : ١ / ٤٨٧ – ٤٨٨ .

٢ – مجمع الأمثال، تأليف: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار النشر: دار المعرفة – بيروت : ١ / ٦ .

٣ – المصدر نفسه : ١ / ٦ .

٤ – ينظر علم اللغة للقارئ العربي ، محمود السعران ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط٥ ، عالم الكتب ، مصر ، ١٩٩٣ : ٢٨٥

٥- ينظر : التعبير النفسي في الأمثال ، يوسف عز الدين ، مصر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٢ : ١٤٩ .

ديني ، سياسي ، اقتصادي ، ...) او مبني على أخلاقيات وضوابط اجتماعية بأفراد المجتمع لإتباعها ، لان الحكمة والنجاة والربح ، هي احد وأعظم الأساليب التربوية المتبعة في التعليم والتي ترسم بمجموعها صورة في الوجدان الشعبي . [١]

لقد عبرت الأمثال عن مواضيع مشتركة كالكرم ، والشجاعة ، والتوجيه ، والنصح والإرشاد واهتمت الأمثال بروح الجماعة ، والابتعاد عن التفرد فكان نفس طويل في لغة التعبير ، الأمثال لم تضرب إلا رد فعل عميق لما في النفس من مشاعر وأحاسيس ، نتيجة للمؤثرات التي دعت الى ضرب المثل والحكمة . [٢]

فالأمثال صورة كاملة مثالية ، صالحة لان تصف العلاقات القائمة بين أفراد أي مجتمع في أي زمان او مكان ، فالإنسان لا يستطيع بطبيعته ان يعيش منفرداً عن المجتمع ، بل لابد ان ينخرط داخل المجتمع من خلال العلاقات سواء كانت سلبية ام ايجابية .

ومن هنا نرى العربي داعيا في صور متباينة إلى التمسك والتسلح بالعلاقات الطيبة الحسنة بين الإنسان ومجتمعه ، ليعم الخير والنفع ونبذ وحذر ونهى في صور مختلفة عن العلاقات السلبية التي تهدم المجتمع فضرب الأمثال لمواكبة تطور المجتمع ومسايرته في بنائه والتوجيه للمثل وهذا يدل على ان المجتمع العربي القديم ادرك مقومات بناء المجتمع المثالي ، وادرك ما نحن بحاجة ماسة اليه اليوم ، فلا تستقيم حياة المجتمع الا بالعلاقات الحسنة وبالابتعاد عن العلاقات السلبية ، فما أروعه من مجتمع مثالي .

نبذة عن حياة الشاعر

كتب الكثير عن شاعر العرب الكبير معروف الرصافي ، وتناول الكتاب جوانب مختلفة من سيرته وشعره ، وعلى الرغم من كثرتها وتنوعها ، فقد بقيت حلقات مهمة من حياة الشاعر بعيدة عن أقلام الكتاب لأسباب كثيرة .

فالرصافي هو معروف بن عبد الغني البغدادي المولد والمنشأ ولد سنة ١٨٧٥ م وقد لقب بالرصافي نسبة الى مدينة الرصافة في بغداد . تلقى العلوم في الكتاتيب الأهلية في تلك المدينة على يد الملالي (جمع ملة) ، ثم دخل المدرسة الرشيدية العسكرية ، ولم يكمل الدراسة فيها ، وأكمل دراسته في اللغة العربية وآدابها ، وظهرت موهبته الأدبية آنذاك ، عين أستاذاً للأدب العربي في مدارس بغداد ، وفي عام ١٩٨٠ م عين في المدرسة الشاهانية لتدريس اللغة العربية ، وانتخب نائباً في مجلس المبعوثان عن لواء (المنتفق) وبعد الحرب العالمية الاولى ، عاد الى بغداد ، وعين نائباً لرئيس لجنة الترجمة والتدريب ، واصدر جريدة الأمل اليومية سنة ١٩٢٣ م لكن هذه الجريدة لم يكتب لها النجاح اكثر من ثلاثة أشهر ، انتخب عضواً في مجلس النواب العراقي خمس مرات خلال ثمانية أعوام وفي سنة ١٩٣٦ م ، زار مصر واطلع على معالمها وادابها . [٣]

وعندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ م انظم اليها ونظم اناشيدها ، وبعد فشل الثورة ، انكفأ على نفسه وقبع في بيته لا يفارقه ، الى ان توفاه الله سنة ١٩٤٥ م ، ودفن جوار الشاعر العراقي الشهير الزهاوي .

---

١ – ينظر : الخصائص البنيوية للمثل الشعبي ، محمد السموري ، بحث منشور ، مجلة البوان ، ع٦ ، دمشق ، سوريا ، ٢٠٠٦ : ٨ .

٢ – ينظر : التعبير النفسي في الأمثال : ١٥٦ .

٣ – ينظر : الشعراء العرب في القرن العشرين ، حياتهم شعرهم اثارهم ، عبد الروضان ، ط١ ، الاهلية للنشر والتوزيع ، وسط البلد ، الأردن ، ٢٠٠٥ م : ٥١٣ .

الأمثال عند الرصافي

سنتحدث في بحثنا عن توظيف الأمثال في شعر الرصافي ، فقد وجدنا ان الشاعر كان مكثراً في تضميناته الشعرية ، فاتخذ منها حجة له في تدعيم شعره وقوة سبكه والاستفادة منها في رفد واغناء معانيه ، وتعزيز كلماته الشعرية وبث الصورة الحية والموحية في داخل نصّه الشعري .

لذلك راح الرصافي يسترفد نصوصاً عديدة ، ومتباينة المصادر والمنابع يستفيد من الأمثال في رفد تجربته ونصه الشعري وتعميق رؤيته ، والاستفادة منها تعبيرياً ولغوياً في آن واحد .

ولو تفحصنا جهود الرصافي للوصول الى توظيفه للأمثال لوجدناه قد أفاد إفادة عظيمة منها ، وهذا يتضح من خلال التضمين الكامل المباشر لنص المثل ، او التصريح الجزئي له ، او المراوحة بين الإيحاء والتلميح او الإيجاز ، لذلك شغل التفاعل المثلي مع شعره مساحة واسعة ، فأخذت الأمثال مساحة واسعة ومرموقة ، ولا سيما الأمثال التوجيهية ، والتي تحمل في طياتها قصصاً وعبر عادات العرب وتقاليدها .

التضمين التصريحي :

ونعني به استمداد الشاعر من الأمثال بشكل صريح وواضح دون تغيير ألفاظ المثل واستعماله داخل السياق الشعري دون نقص في المعنى او المفردات ، ويركز هذا النوع من التضمين على الموسيقى الخارجية للأمثال ، وهذا النوع من التضمين يكون مقيداً بقيود تجعل الشاعر لا يجد راحة ولا مرونه في عرضه للموضوع الذي يريده . [١]

ولكن الرصافي يجسد مذاهب مختلفة ومتمايزة في التوظيف تتراوح بين التضمين الكامل والمباشر لنص المثل او التصريح الجزئي له او المراوحة بين ذلك ، وهذا الأمر طبيعي ، لان الأمثال لها شان كبير في حياة الناس ، ولان معانيه موجهة حول الدنيا والزهد فيها وذكر الموت والعذاب والآخرة والثواب والعقاب والقناعة والتوكل والرضا والعدل والتقوى ... وكلها معاني تدور عليها الأمثال المضروبة ، ويفصل القول فيها ، وأصبح المثل بؤرة مركزية فنية مولدة للكثير من الإيحاءات والأفكار ، ويطول بنا المقام لو رحنا نتتبع مصادر كل معنى شعري في قصائده ولا باس بمجموعة من الأمثلة التي تدل على ذلك كما في قوله

فهم كمن فـرّ مـن قَطـــر يُبلّله ... ثَم انْتحى السيل أو جاء الميازيبا

ولـــم تزل كل يـوم من سياستها ... تُلقـي العـراقيل فيـــها والعراقيبا

هل يأمن القوم أن يحتلّ ساحتهم ... جيش يدُكّ من الشام الأهاضيبا [٢]

لقد وظف الشاعر المثل ، توظيفاً فنياً ، فأصبحت كنايات تشير إلى أشخاص غير المعنيين في نصه الشعري ومرجعية الشاعر هنا الى المثل القائل (فر من القطر ووقع تحت الميزاب) [٣] ، فشبه الحكومة العراقية مثل الذي يفر من الشيء ليقع تحت شيء اكبر منه او تحت الزراريب التي ترمي الماء بصورة كبيرة أكثر من المطر ، فنلاحظ الرصافي

---

١ – ينظر : المثل في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة : ١٣٣ .

٢– ديوان الرصافي : تاليف معروف الرصافي ، مراجعة مصطفى الغلاييني ، موسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، القاهرة ، ٢٠١٢ م : ٢ / ٥٩١

٣– فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، تأليف : البكري : ١/ ٣٧٨ ، المرزاب : قناة يجري فيها الماء وتجمع على مازريب ، المُنَجَّد في اللغة : ابي الحسن علي بن الحسن الهنائي المشهور بكراع (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق : د. احمد مختار عمر ، د. ضاحي عبد الباقي ، عالم الكتب القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٨ م : مادة المزر : ٣٣٠.

قد استفاد من المثل مضمنا البيت على ما يوافق الوزن والقافية ، فاعتمد الشاعر على المزاوجة لرفد التجربة الشعرية ، فاستحضر الشاعر هذا المثل للفت الانتباه وتوسيع افقه الشعري وأغناء تجربته ، فأراد التخلص من شدة فوقع في اشد منها ، فأرد الهرب من الموت فوقع في الموت المحقق . فصور لنا في بيته ما أسميناه بـ (القيادة والنفاق السياسي) فصور لنا هذا التعبير نفاق الحكام ومدى استغلال الناس من قبل (الزعيم) للسطو على قلوب الناس وهذا الأمر ملموس منذ القدم ، كما نلمسه ألان ، فرسم لنا صورة للسياسة التي تنتهجها الحكومة لتستمر في الحكم وكيف ارتمت في أحضان الانكليز لحمايتها ، ولكنها عكس ذلك فرّت الى الموت ووقعت تحت سيل المزاريب بمعنى ان الشاعر حولها الى رمز تحمل الدلالات الأصلية مضافاً لها ما تحويه من دلالات جديدة ، فضلاً عن فائدة التكتم التي تقي الشاعر من ان يتعرض الى مخاطر التصريح في حال كون المعرّض به ذا سلطة وسطوة ، والشاعر في البيت الأخير كأنه قد يأس من هذا الحكم على قرب عهده ، وهذا ملمح من ملامح الشاعر بالغربة عن السلطة ، لان المشاركة السياسية عملية اجتماعية ديمقراطية ، يلعب من خلالها الفرد دوراً فاعلاً في وضع الأهداف العامة للمجتمع ، كما يسهم في وضع الوسائل لتحقيق تلك الأهداف العامة للمجتمع كما يسهم في وضع الوسائل لتحقيق تلك الأهداف كالانتخابات والترشيح وممارسة العمل السياسي ، بعيداً عن العنف والإقصاء ، ومن أمثلة استخدامه للأمثال العربية القديمة ذات الدلالة البدوية النادرة قوله :

أحبّ صراحتى قــولاً وفعلاً وأكــره أن أميل إلــى الرياء
فما خادعت مــن أحدٍ بأمرٍ ولا أضمرت حَسواً في ارتغاء
ولست من الذين يرون خيراً بابقاء الحقيقة في الخفاء [1]

الذي حاول فيه نقل دلالة المثل الجاهلي (يُسرُّ حسوا في ارتغاء) [2] ، الذي يضرب لمن يحاول ان يستغفل الآخرين ، لكن شاعرنا تمكن من ان يقربه من حياتنا المعاصرة من خلال قوله (فما خادعت) فصار المثل الجاهلي يعنى انتقال الأمر من حال الى حال اخرى . وصار معنى المثل انه لا يضمر قول الحقيقة وإبقائها في الخفاء مهما بلغ الأمر

ونلاحظ الرصافي في موضوع أخر يضمن المثل (الحب أعمى) . في شعره اذ يقول

قالوا عشِقتَ معيب الحسن قلــت لـهـم كُفّوا المـلام فما قلبـــي بمُنزَجر
ما العشق إلاّ العمى عن عيب مَن عشِقَت هذي القلوب ولا أعني عمي البصر [3]

لقد حاول الشاعر بكل ما أوتي من قدرات فنية وأسلوبية وتعبيرية ان يوظف معنى المثل القائل (حبك الشيء يعمي ويصم) [4] ، أي ان حبك للشيء يعميك عن مساوئه ، ويصمك عن استماع العذل فيه ، تمثل المفردات الشعرية السابقة استهلالا وصفياً يلح على قضيتين في معرض حديثه عن الحب الذي يربط الإنسان مع أفراد مجتمعه ، والعربي بطبيعة حياته بحاجة ان يحسن صنع هذه العلاقة فبدون الحب والصداقة ، يصعب عليه ان يعيش حياته بشكل طبيعي ، فالقلوب تعمى إذا أصابها الحب ونعني به (العشق) فلا تفرق بين السوء والخير ، فيتساوى لديه الخير والشر على حد سواء فلا يميز ما هو خير وما هو شر ، فالتراكيب هنا تجري على طرفي نقيض فتعمى بصيرته ، فتمكن الشاعر من نقل

---

١ – ديوانه : ١ / ٢٧٦

٢ – مجمع الأمثال : ١/ ٨٩ ، ينظر جمهرة الأمثال ، تأليف: الشيخ الأديب أبو هلال العسكري، دار النشر: دار الفكر – بيروت – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م : ٢ / ٤٢٠.

٣ – ديوانه : ١ / ٢٤٠

٤ – مجمع الأمثال : ١/ ٧٨ .

الدلالات الخاصة إلى الدلالات العامة ، ونلاحظ الرصافي أدى المعنى دون تكلف او تعقيد ، فتضمينه للمثل بطريقتي الدلالة واللفظ فالدلالة بأخذ المضمون وهو (العشق) لعلمنا ان الحب أعمى ، أما اللفظ فقوله (أعمى)، وبناء المثل ومعناه بما يلاءم حالته النفسية التي أراد ان يبينها من خلال رؤيته الشعرية ، فسلط الضوء من خلال المثل المطروق ليبين مدى العلاقات الإنسانية فلا يوجد إنسان كامل الأوصاف ، او محتوي لجميع الفضائل .

فالشاعر هنا يعالج انفعالاً عاطفياً ، توصل اليه بأساليب متباينة ، يطفو على لهجتها الانفعال العاطفي المحض ، فنلاحظ انفعال الشاعر العاطفي هو انفعال تقليدي في هذه الأبيات ولا يختلف عن من قبله من الشعراء القدامى في استعماله للأساليب في الشعر القديم ، وبما ان المعاني مطروحة في الطريق ، كما زعم الجاحظ ، فقد استعمل الرصافي المعاني المطروحة أمامه ، فقام على التجديد في نتاجه الشعري فالشاعر غشى المعاني باللطائف ، والاستعارات البديعية التي استعارها الشاعر من الأمثال [١] . واستعملها بما يخدم الموضوع الذي يطرحه من خلال الأبيات الشعرية . ويواصل الرصافي تضمين المثل تصريحية كما في قوله :

قد قضى الكاظمي وهو جدير أن تعزّى في موته الشــعراء
عـاش منسـيّ عـارفيه ولما مـــات فاضت بنعيه الأنباء
أيـها النـادبون غيريَ غـرّوا برح اليـــوم للبيــب الخفاء
يكــرم الميت بالثناء وتحيا عندكم في المهانة الأحياء [٢]

فنراه يتكئ على المثل القائل ((برح الخفاء)) [٣] ، لرسم صورة مطبوعة مبدعة في مخيلته ، فقد تمكن من تضمينه هذا الإرث المشاع والموجود في التراث الأدبي (برج الخفاء) . ليدل على انكشاف الأمر ووضوحه ، فبعد وفاة الكاظمي الذي ظلمه الناس في حياته ولم ينصفوه في موهبته الأدبية ، إلا بعد وفاته وتناسوا أدبياً عبقرياً ولكن بعد فوات الأوان فعاتبهم الرصافي عتاباً شديداً بعد الوفاة ، فأشار إلى المثل بشكل موجز ليس فيه إطناب وإسهاب فتشير اليه المكرمات ، ويتجلى تضمين الرصافي هنا في تجسيد حقيقة الموت الذي لا مناص منه ، وان طريق الموت محتوم لا مهرب منه فالكل أمامه في العجز سواء فعصف به الموت وقضى على حياته وسقط نجمه اللامع ازاء تلك الحقيقة السرمدية ، وأنكروه الناس في حياته وأكرموه بعد مماته .

ولا شك ان الرصافي يستخدم المثل العربي داخل نصه الشعري بوعي ومقصديه ، ولا يقحمه إقحاماً ، إنما يأتي بطرق سهلة واضحة في التوظيف ، ونلمح ذلك من خلال المثل الذي جاء في عجز البيت ، مثبتا وداعما لصدر البيت حيث أتى بالمثل كاملا دون نقص في ما يخل بألفاظه فالشاعر استعمل مثلا موجزا سائراً ، ليس به إطناب او إسهاب ، والمثل هو ((دون ذلك خرط القتاد)) [٤] . فاستلهم دلالته المعنوية المتمثلة بالأمر الممانع منه ، او انه يضرب للأمر دونه مانع ، فقال في ذلك :

تَغَرَّب ضارباً في الأرضَ يبغي مــدىً من دونه خرط القتاد
فأوغل فـي المفاوُز والمَـوامي وطَوّف في الحواضر والبوادي [٥]

١- ينظر : احمد شوقي ، أمير الشعراء ، ج١ ، ايليا الحاوي ، دار الكتب اللبناني ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠ م : ٦٥ .
٢ – ديوانه : ٢/ ٥١٢ .
٣ – مجمع الأمثال : ١ / 95
٤ – نفسه : ١/ ٢٦٥ .
٥ – ديوانه : ١ / ١٩٦

يرسم لنا الشاعر لوحة شعرية صادقة ، ينفذ من خلالها الى شجاعة قومه في طلب العلم في بقاع الأرض ولو كان هناك موانع كثيرة ، فطرق كلمات المثل العربي دون أي تغيير ليفصح عما يموج في داخله ، والتعبير عن حالة أراد ان يعطيها بعداً فنياً من خلال إتيانه بمفردات المثل الدالة على الممانعة وكثرة المتاعب التي تواجه الذي ينوي السفر للعلم والرزق .

ومن الأمثال التي استعملها الرصافي في شعره ((إذا رأيت الفقير يعدوا فاعلم انه في حاجة الغني)) [١] . في قصيدته التي ثار فيها على الغني وعالج موضوعات اجتماعية ، فكان لا يترك منظراً يؤثر فيه الا ورسمه بريشته رسماً حزيناً ، يترك الأثر البالغ في النفس الإنسانية ، لما فيه من أسى وصورة حزينة ، لذلك الفقير وحاجته الى الغنى وقد تعاون عليه الفقر والدهر في ان واحد [٢] . فقال :

عندنا اليـــوم للحيـاة نظـــام قد حوى كل باطلٍ ومُحال
حيث يسعى الفقير سعي أجير لغنيّ مستأثر بالغلال [٣]

ففي هذا البيت يوضح مدى ما شغل به الرصافي من التفكير في الإنسانية وما على الإنسان لأخيه الإنسان من التزام أخلاقي وأنساني في الخير الذي يسلكه في مجال حياته .

ونلاحظ أن الرصافي يختار ما يناسب تجربته الأدبية من أمثال تنطبق وحالته التي يريد إيصالها إلى القارئ لشعره ، فالشاعر يحاول ان يوظف المثل بما ينسجم وانفعالاته النفسية ومزايا تجاربها الشعرية ، وبما ينسجم وتطلعاته ورؤاه في توظيف ألفاظ الأمثال ، فالرصافي لا يتاجر في أشعاره وأرائه ، ولا يسعى لمنافعه الشخصية [٤] . فقد استفاض في نصوصه الشعرية من هجاء ساسة الناس وقادتهم ولا تلومه في ذلك لومة لائم ومن ذلك تشبيه الصغار الذين ساسوا الناس بالذنب الذي أصبح رأساً كما في قوله يرثي محمود الالوسي بعد وفاته :

حتى تقدّم ما فـــي القوم مـــن ذنبٍ فصار رأساً وصار الرأس في الذنب
وبات يحسو الطلا بالكأس من ذهب من كان يشرب رنق الماء بالعلب [٥]

فعندما نتأمل الطريقة التي ضمن الرصافي فيها المثل العربي القائل (إلحاق الرأس بالذنب) [٦] ، نلحظ ان الرصافي أدى المعنى دون تكلف او تعقيد فتضمينه للمثل جاء بطريقتي الدلالة والمعنى مع تغيير في بعض ألفاظ المثل ، منها كلمة (إلحاق) ، وكنى به الحالة التي سادت المجتمع وقتذاك ، سيادة أراذل القوم الذين لا علم لهم بالسياسة ولا بالثقافة

---

١ – ينظر : مجمع الأمثال : ٢/ ٣٥٦

٢ – ينظر : دراسات في الشعر العربي المعاصر ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٧ ، ١٩٧٩ م : ٦٥ .

٣ – ديوانه : ١ / ٢٦٢

٤ – ينظر: معروف الرصافي ، حياته وأدبه السياسي ، رؤوف الواعظ ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٦١ : ٩٧ .

٥ – ديوانه : ٢ / ٤٦٤

٦ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تأليف: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار النشر : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ،١٩٩٥م : ١ / ٢١٢ .

وصاروا يتحكمون بمصير الناس والمجتمع ، فضيعوا أنفسهم وضيعوا الناس ، فكلهم مجرد أناس نفعيين ينفذون أجندة خارجية بعيدة عن مطالب الناس ، مما حدا بالرصافي لإتيانه بهذه الألفاظ القوية ، لكي تناسب هؤلاء الجهلة والظلمة .

وقد يتفنن الشاعر في انتقاء الأمثال العربية القديمة ولربما حاول استجلاء تراكمات ثقافية مخزونة من جراء قراءاته فتأتي الومضة الشعرية مع الاستذكار فيكون النص مفعماً بروح التراث ومستحضراً بعض الأمثال النادرة كما حصل في قوله :

فنحن أوفى الورى بالعهد شنشنةً ونحن أرفعهم في المكرمات ذرا [١]

مستلهماً دلالة المثل العربي القديم (شنشنةُ اعرفها من اخزم) [٢] . ومحاولاً الإفادة من تشابه الدلالات المعنوية بين أبيات قصيدته وبين ذلك المثل العربي القديم . اذ وضفه لبيان زيف الأنظمة والدساتير في ذلك الوقت وإظهار القهر والتسلط اللذين كانا يثقلان كاهل الشعب ويشكلان عائقاً بوجه التحرير والاستقلال .

لقد كانت مرحلة الحكم الوطني في العراق ثرية بالأحداث الجسام والهزات والانتفاضات الشعبية ضد المعاهدات الظالمة والاختراق السياسي والاجتماعي ، فكشف لنا الرصافي في شعره القناع عن الصورة الحقيقة التي وصلت اليها بغداد وقتذاك ، وما أفرزته السياسات التعسفية من كبت الحريات ، وهدر للحقوق على أيدي الحكام والسلطة ، فأراد ان ينبه الشعب بعدم الاستهانة بالأمور الصغيرة ، لأنها هي مفتاح الشرر الأكبر الذي من خلاله ذاقوا الذل والهوان بعدما كانوا سادة القوم فقال :

لا تُهملوا الضرر اليسير فإنـه أن دام ضاقت دونه الفلوات
فالنار تَلهَب من سقوط شرارة والماء تَجمع سَيْله القَطَرات
لا تستنيمـوا للزمــان تــوكُّلاً فالدهـــر نزّاعٌ لــه وثبات [٣]

واضح تماما ان الشاعر الرصافي قد أجاد في اختياره للمثل والحادثة التي أراد ان يبينها ، فاخذ ينم عن مضامينه ودلالته ومفرداته ، ويتعانق مع رؤاه الشعرية من ان الضرر القليل يأتي بضرر كبير ، إذا لم يحسب له حساب فأشار إلى هذا المعنى بالمثل القائل (اليسير يجنى الكثير) [٤] .

ومن يقرا شعر الرصافي يرى كثرة الأمثال العربية التي طرقها ، فلا يكتفي بطرق المثل المباشر فحسب ، بل يلجأ إلى تكثيف دلالاته وإعادة بنائه في بنية النص الشعري ليصبح نصاً جديداً كما في المثل العربي القائل (أهدى من القطاة) [٥] ، فقد ضمن المثل في قصيدته التي وصف بها مرتكبي الفواحش الذين لا يتوانون في فعل المعصية ، واصفاً ذهابهم الى الفاحشة وكأنهم مثل القطاة التي تضل طريقها فقال :

مــن كل مرتكب الشنيع ولـم يكد يثنيه عنه إذا لحاه اللاحي
أهدى بطرق المخزيات من القطا وأضلّ ممَن آمنوا بسجاح [٦]

---

١ – ديوانه : ٢ / ٤٨٧
٢ – مجمع الأمثال :١/٣٦١ .
٣ – ديوانه : ١ / ١٦٢ .
٤ – مجمع الأمثال : ٢ / ٤٢٧ .
٥ – ينظر نفسه : ١/ ٤١٢ ،
٦ – ديوانه : ٢ / ٨٦٨

ومن خلال القراءة المتفحصة لديوان الرصافي وجدنا أكثر شعره حكماً وأمثالاً لتوجيه المجتمع الوجهة الصحيحة ، فكان بمثابة مصلح اجتماعي يعمل عمل الدعاة والخطباء والوعاظ ، في إرشاد الناس الى السجايا الحميدة والالتزام بالعلم والتقاليد الموروثة [١] ، فقد امتلأ ديوانه بالأمثال العربية الفصيحة والعامية ، التي كشفت لنا الحجاب عن هذه المعاني ، وليعبر عن أهداف وغايات في داخله ، يريد إيصالها للناس فكأنه يعيش في دنيا الواقع المحسوس ، فيعم بين الناس الصدق والعدل والمساواة فضرب الأمثال الدالة على ذلك ، فلا يكون هناك بائس ولا بؤس ، ولا حاقد ولا حقد ، فالناس سواسية [٢] .

ومن الأمثال الصريحة التي استعان بها الشاعر في التعبير عن المعاني الدقيقة في موضوعاته المختلفة قوله :

كأني بين أطلال المغاني أسير عضّ ساعده الوثاق
حديد بارد في اللوم قلبي فليس له إذا طرق انطراق [٣]

واضح ان الشاعر قد وضع المثل العربي القائل (تضرب في حديد بارد) [٤] ، نصب عينيه فاخذ الشاعر ألفاظ المثل دون الإخلال بالمعنى المراد ، فلا يحتاج البيت لجهد لتأويله ومعرفة مراده من القارئ ، مستلهماً دلالته التي تنص على انه يأبى الظلم والاستبداد ونفسه تعشق الحرية ، فلا يخاف من سلطان او حاكم .

ومما لا شك فيه ان الشاعر الرصافي قرأ الأمثال قراءة متفحصة قامت على استيعابها واستثمارها بصورة دقيقة ، مستفيداً من تحويرها ومن معانيها ، إذ يعمد الشاعر إلى الأمثال التصريحية ويضمنها شعره ومنها المثل القائل (ليس الخبر كالمعاينة) [٥] ، فقد وظف المثل وجعله نقطة شعورية ينطق بها النص الشعري كما في قوله :

كم خلّد الدهر من أيامهم خبراً زان الطُروس وليس الخُبْر كالخَبَر
أبكي على أمة دار الزمان لها قبلاً ودار عليها بعدُ بالغِيَـــر [٦]

ولعل نظرة بعيدة الغور تظهر من هذين البيتين ان الرصافي تحدث عن أيام الدهر وما تخبره من أناس خلدهم الذكر الحميد لهم ، ونلاحظ إن الشاعر قد علل هذه النظرة لان الأخبار التي تصل إليك دون التحقق منها تجعل المرء يتخذ موقفاً دون علم مسبق [٧] ، فالخبر الذي تعاينه وتراه بأم عينيك هو الذي يكون يقينا وصادقاً .

ومن خلال قراءتنا لديوان الرصافي يتبين ان الأبيات الشعرية التي تحتمل مثلين ، تكون اكثر وقفاً واعلق في النفس من سواها وهذا ما وجدناه في شعره الذي ضمنه لمثلين استوعبهما داخل نصه الشعري وهما (لكل دهر رجال) [٨] .

---

١ – دراسات في الشعر العربي المعاصر : ٦٢ .
٢ – ينظر المصدر نفسه : ٥٩ .
٣ – ديوانه : ٢ / ٨٣٧ .
٤ – مجمع الأمثال : ١ / ١٢٥ .
٥ – نفسه : ٢ / ١٨٢
٦ – ديوانه : ١ / ١٠٦ .
٧ – ينظر : الرصافي ، حياته وادبه السياسي : ١٥٤ .
٨ – مجمع الأمثال : ٢ / ٢٠٢ .

والمثل (انه لألمعي) [١] ، يقول :

فتى غمدت منه المنون مهنّداً وأيّ حســـام ماله الدهــر غامد
يعدّ بألف مـــن رجـال زمـانه على أنه فـــي الألمعّية واحد [٢]

تكشف المفردات الشعرية أن الشاعر رسم لنا صورة ، بقلمه الثائر ، نستطيع ان نستلهم منها ما كان يؤمن به الشاعر ويبتغيه من مدحه للمقدام الشجاع الذي لا يهاب الموت ، فأن عواقب الأيام ، وصروف الدهر ، مالها أمان في تغيير مصائر الناس وأمالها وغاياتهم رغما عنهم ، ودون ما يبتغون [٣] . فأشار في صدر البيت الثاني ، الى المثل القائل (لكل زمان رجال) ، وفي عجز البيت الثاني أشار الى المثل القائل (انه لألمعي) الذي جاء بصورة شعرية مضمنا المثل بما يلائم دلالة النص ، المتمثلة بالقوة والمنعة .

فالرصافي كما مرَّ سابقاً كان ذا نفس تنضوي على كثير من المروءة والحنان والشفقة ، كان دائم التفكير في الطبقة الفقيرة المعدومة فتحول الشاعر الى ما يشبه البوق [٤] ، للدفاع عن حقوق الفقراء والمساكين ونبذ الفوارق في المجتمع بين الأغنياء والفقراء ، ومن ذلك قوله في الأغنياء والفقراء .

وبعض له أنف أشمُّ من الغنى وبعض له أنف من الفقر أجدع
بحيث تسير الناس كلٌ لِوِجهةٍ فهذا على رِسل وذلك مُسرع [٥]

وما من تثريب علينا ولا مناص اذا رددنا القول إلى أوله ، وربطنا الشعر بالأمثال التي استقى منها الشاعر معانيه ففي البيت الثاني يقتبس مثلاً معروفاً (منك انفك وان كان اجدع) [٦] ، بعد إجراء التعديلات عليه بما يتناسب والبعد الفكري الذي بثه الشاعر في نصه ، فاستلهم مضامينه موظفاً ألفاظه ، وانزله في نصه الشعري ومستنسخاً منه ما يوافق موقفه الشعري ، وتعميق موقفه الفكري [٧] ، مع ما يلائم نظرته إلى الفوارق الطبقية التي أفرزتها السياسات الخاطئة للحكام ، الذين ساسوا البلاد .

والمتصفح لديوان الرصافي يرى إن الأمثال التي جاء بها لا تختلف الا الشيء اليسر ، فجاءت معبرة عن حياة الإنسان وأحوال المجتمع الذي يعيش فيه الشاعر ومعبرة عن حالته التي يصفها في كثير من أمثاله ومن ذلك قوله يصف سمو نفسه وعفتها

لا تَشْكُ للناس يوماً عُسرة الحـال وأن أدامتك فـــي هـــمّ وبِلبـال
وجانب اليأس وأسلُك للرجـا طُرُقاً فالدهـــر مـــا بين أدبار وأقبال

---

١ – مجمع الأمثال : ١ / ٣٣ .
٢ – ديوانه : ٢ / ٤٦٨ .
٣ – ينظر : الرصافي حياته وأدبه السياسي : ٨٠ .
٤ – ينظر : دراسات في الشعر العربي المعاصر : ٦٦
٥ – ديوانه : ١ / ١٠٠
٦ – مجمع الأمثال : ٢ / ٢٩٨ .
٧ – ينظر : مظاهر التناص الديني في شعر احمد مطر ، سليمان عبد المنعم فارس ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين ، ٢٠٠٥ م : ٦٣ .

وأركب علـى صَهَوات الجِدّ مغترباً فيـما تحـاول ذا حـلّ وترحـــال
وأطلب على عزّه بَيْض الأنوق ولا تطلب لعمرك أن تَحظى بِمفضال
لك يَبق غيـر الــذي غُلَّت أنامله إمـــا بأغـلال شُـــحّ أو بإقلال [1]

يتضح في البيت ما قبل الأخير انه حمل معنى المثل القائل ((أعز من بيض الأنوق)) [2] ، فهو مثل يضرب به كناية عن سمو نفسه وعلو مقامه ، فلا يطلب الأشياء من غير أصحابها ، ولا تطلب الذل والهوان ، واركب الصعب المستحيل للحصول على مرادك الذي تبتغيه ، فنفسه الابية تأبى الضيم والاستكانة والتذلل للناس لأجل الحصول على مبتغاه وغايته ، ولعل الشاعر ضمن المثل بجميع اجزائه دون نقصان ، او خلل في المثل او حذف ، مشيراً إلى طلب الحاجة يجب ان يكون بعزة وكبرياء دون استجداء لأنه هنا قصد التحرك للسعي والعمل للحصول على مبتغاه دون التذلل في استعطاف الناس وطلب الحاجة منهم ، فتمكن الشاعر من استنطاق المثل المضمن في نصه الشعري ، واستلهم مضامينه وأفكاره ومفرداته ، فاستثمر تلك الصورة ورسمها بأسلوبه الفريد ، ليعبر من خلاله عن مكانته العظيمة ومركزه المرموق في المجتمع .

التضمين التحويري

ونعني به إتيان الشاعر للمثل العربي والاستفادة منه بصورة تحويرية داخل نصه الشعري ، ونلاحظ ان الرصافي رجع إلى الأمثال من خلال مقاطعه الشعرية مضمنا بعض ألفاظها وتراكيبها بصورة تلميحية او جزء من المثل او عن طريق التقديم والتأخير لمفردات المثل [3] ، وفقاً لتحويلات جديدة في النص الشعري ، ولجأ الى الشرح والتفصيل والتحليل مضيفاً معاني الدقة والعمق ونوعاً من الروعة والحسن والفذلكة والتطوير ، اذ عمد الشاعر إلى الأمثال وأعاد توظيفها في البناء الشعري مغيراً إياها تغييراً ايدولوجياً او معنوياً او لفظياً لينهل منها في بناء نصوصه الشعرية ، اذ استطاع الرصافي ان يفيد من الأمثال في إثراء تصويره الفني ، ولما لها من دلالة إيحائية كبيرة في مغزى بنائه الجديد ، وفق آليات تركيبية فنية ، تجمل الدلالة نفسها بإطار يتوافق ومقدرته الشعرية ومنحه بعداً دلالياً وعمقاً نصياً قادراً على التأثير في ذهنية المتلقي ، كما ان الشاعر استطاع من خلال مقدرته الشعرية الاستفادة بشكل كبير من الحكم والقصص الأدبية ، وان يوظفها خير توظيف في بنائه الشعري ، كما حاول استثمار احد الأمثال العربية القديمة في التعبير عن الوضع الاجتماعي السائد في عصره عندما قال :

فإنّك لم يُنبِئك مثـــل مجّرِب خبير ولـ م ينصحك مثل مُحنَّك
فهذا لعمر اللهّ رأيي فخُذ به فقد فُزت منه بالجُذيل المُحكَّك [4]

---

١ – ديوانه : ٢ / ٨٦١

٢ ـ مجمع الأمثال : ٢/ ٤٤ ، الانوق : هو ذكر الرخة والعرب تؤنثه وان كان اسما لذكر ، وهو من ابعد الطير وكرا في الهواء ، فلا تنال منها مهما بلغت بك الغايات لعلو مقامها وبعده عن الناس .

٣ – ينظر : المثل في الشعر الأندلسي : ١٢٤ .

٤ – ديوانه : ١ / ٢١٤

حيث استقى ذلك من المثل العربي المشهور (انا جُذَليها المحكك وعُذيقها المرجّب) [١] ، وقد كان في الأصل قول للحباب بن المنذر ثم صار مثلاً يضرب لمن يُستشفى برأيه ويعتمد عليه [٢] .

وهكذا نجد أن الشاعر يستثمر الأمثال الدالة على القوة والقتال والمنعة ويستثمرها في مكانها الصحيح ، ما يؤكد على شدة التواصل النفسي للشاعر مع التاريخ القديم واستثمار الطاقات التعبيرية فيه ، فهو بغية تحقيق التواصل المعنوي يستدعي المثل العربي (بلغ السيل الزبى) [٣] ، منتهزاً دلالته المعنوية حيث يضرب هذا المثل في بلوغ الامر غايته في الشدة والصعوبة مستثمراً دلالته في تشجيع ابناء قومه على العمل واللحاق بمن حولهم من البلدان المتطورة فقال حاثا قومه على القتال لرد مدينة(درنه) من الاحتلال الفرنسي :

أيَحُسن يا قـــــوم أن نقعدا وقد آن أن ينهض القاعدون
فسيُل المصائب غطّى الزُبى وغيم النوائب قـــــــد طبّقا
وأوشـكـت الأرض أن تُقلـبـا وصبـــح القيامـة أن يُفلَقا [٤]

فنراه يضمن المثل توظيفاً مناسباً مع الأمر الذي أراد إيصاله إلى الذين خاطبهم من أبناء جلدته ، لان القعود لا خير فيه ، حقه على عدم الاستسلام والضعف أمام ضربات الأعداء ، وما ارتكازه على لفظة (المصائب) الا ليصبح هناك مؤثر على نقد المجتمع الذي أخذت الأمم الأخرى تتكالب عليه نتيجة للتفرقة والتفكك والضياع ، وبذلك نجح في توصيف المعاناة التي ألمت بمدينة (درنه) ، فالشاعر أخفى بعض مفردات المثل وجاء بألفاظ مختصرة فذكر كلمة (الزبى) للدلالة على الأمر وشدته ، فسيل المصائب عمت البلد من كل صوب ، فأراد ان يشد عزيمة أهله للدفاع عن الوطن المستباح ، وان يبين لأبناء قومه عظيم الأمر وغايته ، فاستطاع من خلال ذلك ان يكسب الأبيات بهذه المفردات وضوحاً وإشراقاً [٥] ، ونلاحظ أن الشاعر يستدعي المثل العربي الفصيح ((قد بين الصبح لذي عينين)) [٦] ، في قصيدته الغزلية التي يقول فيها :

نضت عن محيّاها النقاب عشيّةً فأسفر صبح الحسن من كل جانب
ومذ نشرت سـود الذوائب أولجت نهار محـــيّاهـــا يليـــل الذوائـب [٧]

يطالعنا الشاعر في هذين البيتين وقد استعمل المثل بصورة تضمينية في النص الشعري ، فاخذ الفكرة التي في المثل وعرضها بشكل جميل مخاطباً المحبوبة ، بانها كلما أماطت النقاب عن وجهها ، كأنه الصبح اذا بان من كل جانب ، فيبصره الناس من كل مكان بعد شروق الشمس من غمد الليل الطويل [٨] ، فتبصره كل عين فبان الامر والكشف لذي

---

١ – مجمع الأمثال : ١/ ٣١

٢– نظر الآلة والأداة وما يتبعها من الملابس والمرافق والهنات تأليف معروف الرصافي، تحقيق عبدالحميد الرشودي وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، ١٩٨٠ : ٧٧ .

٣ – مجمع الأمثال : ١ / ٩١ .

٤ – ديوانه : ٢ / ٧٠٤

٥ – ينظر : الدرة الفاخرة في الامثال ، عبد المجيد فطاش ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ م : ٨٩ .

٦ – مجمع الأمثال : ٢ / ٩٩ .

٧ – ديوانه : ٢ / ٨٨٧

٨ – ينظر : المثل في الشعر الاندلسي : ٨٦ .

عينين ، كذلك جمالها حين تميط النقاب عن وجهها ، ولقد تجلت براعة الشاعر من خلال الامتصاص الشعري للمثل وطرقه بأسلوب جديد يقوم انتاجه في سياق رؤيته الخاصة ، بحيث يبدو النص الجديد هو الذي يتكلم بلسان المثل القديم الذي ينطق عن تبيان الصبح وظهوره بشكل جلي ، كذلك محبوبته إذا أماطت اللثام عن وجهها .

وقد يعمد الشاعر الى تضمين أبياته الحكمية ، مثلاً من الأمثال العربية ، ليوضح من خلاله نظرة واقعية عمد الى طرحها ، تمثل تلك النظرة حصيلة تجربة توصل اليها الشاعر بعد طول حياة وخبرة ، مقرباً تلك الصورة من خلال صورة اخرى يطرحها المثل (ان لم يكن لنا معلماً فدحرج) [١] ، مضمناً في شعره مجسداً من خلاله حال بغداد ايام الاحتلال الانكليزي وكيف وصلت البلاد الى هاوية السقوط ، بسبب الجهل الذي خيم عليها هنا وهناك :

إن لم يكن شرف البـلاد محصّناً بالعلم كان مهدّد الأطراف
وإذا النفوس تسافلت من جهلها لم يعلها شمم من الآناف [٢]

لا شك ان الرصافي يكرس الابيات الانفة الذكر طاقات شعرية يبين من خلالها أهمية العلم في رفع الأمم ، فاذا خيم الجهل عليها رأيت أسودها نسخت قروداً ، واشار الى ان الشعوب لا تستطيع النهوض اذا تفاخرت من غير علم ، فلا ترتفع الاوطان من فراغ او برفع الانوف والتعالي على الاخرين دون شيء يذكر ، دون الاكتراث بالعلم والعلماء ، فالشاعر استعمل المثل اعلاه بشكل موجز سائر ، ليس فيه اطناب او اسهاب ، فاستلهم دلالته المعنوية المتمثلة بالتعالي على الاخرين دون علم مانع ، وكما جاء في كتاب الجاحظ ((كفى بترك العلم إضاعة)) . [٣]

وسلك الشاعر مسلك شعراء عصره في تضمينه الامثال وخاض في شتى الاغراض الشعرية ، وكان من اهمها الوصف والهجاء ، فكانت له أرائه الخاصة التي لم تعجب جمهرة الحاكمين ، مما اوجب سخطهم عليه ، فقد وقف موقف المناوئ مما كان يشهده العراق من تفاوت طبقي واستغلال اجتماعي وظلم وتعسف وجور وكان يدعو الى الثورة على الحاكمين المستعبدين [٤] ، فضمن المثل القائل (ان في الشر خيارا) [٥] ، في شعره كما في قوله :

فأرهجوا الشـــرّ حتى أن هَبْوَتَه مَدّت سُرادقها في اللوح مضـروبا
راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا
قد كلّفوا شططا فيها حكومتــهم وخالفـــوا الحـــزم فيها والتجاريبا
خافوا التذبذُب في أعمال دولتهم من أن يجُرّ على الأوطان تخريبا [٦]

فجاء المثل في شعره بصورة تلميحية ، مستوحياً معناه ظاهراً من دون لفظه الصريح فالشر فيه خيار أحياناً ، وبعض الحكام فيهم الخير رغم شرهم ، ففي هذا المشهد يدين شاعرنا طبيعة البشر الفاسدة والمهلكة ، ويفجر أقصى

---

١ – مجمع الأمثال : ١/ ٧٤.
٢ – ديوانه : ١ / ٢٤٨
٣ – ينظر البيان والتبين : تأليف ، الجاحظ ، تحقيق: فوزي عطوي ، دار النشر: دار صعب – بيروت : ١ / ١٤٠ .
٤ – ينظر : الشعراء العرب في القرن العشرين : ٥١٥ .
٥ – مجمع الأمثال : ١ / ١١ .
٦ – ديوانه : ٢ / ٥٩١

دلالات الرفض والذم والإدانة للحكام الذين يدعون الخير والصلاح لأوطانهم ، ولكنهم في الحقيقة غير ذلك فيهم الشر نفسه [١] .

ومن الأمثال المضمنة تضميناً تحويرياً في شعره المثل القائل (ان من الحسن شقوه) [٢] ، فقد اتفق في المعنى واختلف في اللفظين اذ ضمن المثل في بيتين مختلفين باللفظ ومتفقين بالمعنى ، فبحذاقته وفطنته الشعرية وظف المثل خير توظيف في ابياته الشعرية فقال :

ومن ذي دلال رنّح الحســن عطفه إلى أن رجا من حسنه عطفه الرفقا
وكم مســـرح فيه الحسان تلاعبت تمثّل كيف الناس تسعد أو تشــقى
حسان علت في الحسن خَلقاً وخِلقةً وهل خلقة تعلو إذا سفلت خلقا [٣]

فالبيت الأول ضمن جزء من المثل (من حسن عطفه) [٤] ، والبيت الثاني من المثل هو قوله (تشقى) ، ففي معرض حديثه جعل الحسن شقوة حين ينظر الرجل الى صورته فيختال في نفسه ، فالحسن مرة يبغضه ومرة يشقيه فالوجوه الحسنة يرى بعضها شقياً وبعضها سعيداً .

وفي موضع اخر يضمن الرصافي أمثالاً تضمنت جوانب ايجابية وقيماً انسانية ، كما في تناوله لشخصية (كعب بن مامة) التي اتخذها ركيزة للانطلاق منها إلى معنى الكرم والجود والايثار ، منطلقاً من المثل القائل (أجود من كعب بن مامة) [٥] ، في قوله :

أميـــــر نَمَتْه للمكارم والعـــــلا جحاجح من كعب كرام المعارق
كذلك أعلى اللّه في الناس كعبه بحظّ من المجد المؤثّل فائق [٦]

نلاحظ أن الرصافي يستثمر دلالات المثل في الإيثار والكرم والجود من خلال مفردات (كعب ، كرام ، المعرق) فشخصية كعب مشهورة بالكرم والجود والإيثار ، حتى انه هلك عطشاً في بعض أسفاره ليسقي رفيقه (النمري) فصار مثلاً يضرب به في الإيثار والجود بالنفس .

وهكذا استطاع الرصافي من خلال مدلولات الكرم والإيثار ، الاستفادة من معنى المثل دون الإشارة إليه من قريب والتغيير في ألفاظه ومعانيه وتحويرها تحويراً كلياً وإتيانه بصياغة جديدة تدعم تجربته الشعرية وتمنحه بعداً أخر ، يستطيع من خلاله الإفصاح عن خلجات تجربته الشعرية ، ويعطي للقارئ مجالاً أوسع للكشف عن تجربته . [٧]

واللافت للانتباه ان الرصافي يعيد صياغة الأمثال في أبياته الشعرية صياغة جديدة يستطيع من خلالها رسم صورة فنية رائعة لما يدور من أفكار ومعان إبداعية ، وتوليد مساحات جديدة واسعة من نصه ، وذلك عن طريق استغلال الطاقات البلاغية الكاملة داخل النص الأدبي (المثل) وما يتضمنه من علاقات غنية ومكتنزة بالعطاء ، لها بكارة الخلق

---

١ – ينظر : الشعراء العرب في القرن العشرين : ٥١٦ .
٢ – مجمع الامثال : ١ / ٥٦ .
٣ – ديوانه : ١ / ٣٣٨
٤ – ينظر المثل في الشعر الاندلسي : ١٢٩ .
٥ – مجمع الامثال : ١ / ١٨٣ .
٦ – ديوانه : ١ / ٨٥
٧ – ينظر : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٧ م : ١٩٢ .

الأول [١] ، فنراه يضمن المثل القائل ((من نظر في العواقب سلم النوائب)) [٢] ، فقد أوجز الشاعر في المثل وحذف منه بعض ألفاظه ليتواءم مع النص الشعري من خلال تثبيت مفرداته في ثنايا البيت ، مع احتفاظه بالمعنى العام للمثل من خلال قوله :

ولقد هانت النوائب فيه إذ لبسنا الصبر الجميل شعارا [٣]

فيشير الرصافي الى التحلي بالصبر الجميل واتخاذه شعاراً في الحياة ، لتجاوز النوائب الصعبة التي تعتريه في طريقه من اجل أمانيه ورغباته ، فمن صبر ونظر في عواقب الامور هانت عليه المصائب والنوائب ، فطعم الرصافي نصه الشعري بمفردات المثل ليتخذها شعراً له في حياته الدنيا ، يتكئ عليها أيام المحن الصعبة التي تواجهه [٤] .

يمضي الرصافي في تضمين نصوصه الشعرية الأمثال تضميناً تلميحياً ومن تلك الأمثال المضمنة المثل القائل (زرّ غبا تزدد حبا) [٥] ، فاستطاع الرصافي بالاستناد على معنى المثل الدال على صلة الرحم والعلاقة بين الأقارب ، والحث على حسن اختيار الأوقات المناسبة للزيارة ، (فالغب) هو ان تكون الزيارة متباعدة حتى لا يمل الشخص الزائر ، ويستفاد من معنى المثل في توجيه الناس فقال شعراً :

زُر أيها الملك المحبوب موطنهم ولو زيارة عجلان ومُجتاز [٦]

يعكس الرصافي في هذا البيت نوعاً من الاجترار من المثل بطريقة الدلالة دون اللفظ ، اذ اخذ المضمون ، التباعد في الزيارة ، فحث الملك على زيارة موطنه لو زيارة عجالة او مجتاز لمعرفة احوالهم ، فظهر معنى المثل باتكائه على كلمة (زر عبا) فنقل جزءاً من المثل ، وبناه بناء مغايراً في نصه الشعري ، وهكذا يلتحم المثل مع بيته الشعري التحاماً مباشراً في المعنى ، ويصبح المثل جزءاً من تجربته ، وقد أستثمر الرصافي من المثل العربي مرجعيات كثيرة لإثراء نصه الشعري ، ويستثمر من هذه المعاني غربته في وطنه وما أصابه من ظلم وحيف ، نتيجة لمواقفه من الحكومة والساسة وعامة الناس جراء عمله السياسة ، مما اوجب سخطهم عليه ، فقد كان يقف موقف المناوئ مما كان يشهده العراق من تفاوت طبقي واستغلال اجتماعي وظلم وتعسف . [٧] ، ومن الملاحظ على أشعار الرصافي انه ضمن الأمثال التي تكون قريبة من واقعه الذي يعيشه ، مع إتيانه أمثالاً جاهلية وإسلامية ، إلا ان الكثير من تلك الأمثال هي التي تكون وليدة

---

١ – ينظر قراءات في الشعر العربي الحديث والقديم ، هاني نصر الله ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، ٢٠١١ م : ١٦٩ .

٢– المستطرف في كل فن مستظرف مجلدين، تأليف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، تحقيق: مفيد محمد قميحة ، دار النشر: دار الكتب العلمية ، ط٢ ، بيروت ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م : ١ / ٦٢ .

٣ – ديوانه : ١ / ١٣٤

٤– ينظر التناص في شعر ابي العلاء المعري ، ابراهيم مصطفى محمد الهون ، عالم الكتب الحديث ، اربد ، الاردن ، مطبعة حلاوة ، ٢٠١١ م : ٢٥٥

٥ – مجمع الأمثال ١/ ٣٢٢ ، والحديث للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فإن المصطفى قد قال ((زر غبا تزد حبا)) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب ، دار النشر: دار المعرفة – بيروت : ١٠/ ٤٩٩ .

٦ – ديوانه : ٢ / ٦٠٢

٧ – ينظر : الشعراء العرب في القرن العشرين : ٥١٥ .

واقعه ومتداولة بشكل كبير في حياة الناس ، ولم يكن توجهه السابق وليد الصدفة ، وإنما كان توجها واع ومقصود ، فثقافته الواسعة واستيعابه للنصوص الدينية والتاريخية والأدبية بطريقة تدل على قارئ ناقد ، ومتلق باهر في استثمار تلك الأفكار في نصوصه الشعرية . [١]

لقد تعامل الرصافي مع (المثل) بدقة وذكاء ، وأفاد من مفرداته التي أبدل بها غيرها ، ثم عاد صياغتها بحلة جديدة داخل نصه الشعري ، صياغة توافق معناها في النص الأول (المثل) وفي نصوص أخرى للرصافي قد يأتي التضمين محوراً تحويراً كاملاً في الصياغة من ذلك قوله :

إذا دُفِع الشـــــرُّ القبيحُ بمثله تَحصَّل شـــــــرّ ثالث وتَوَلَّــدا
وأمست دواعي الشرّ ذات تسَلسُل مَديد وصار الشرّ في الناس سرمدا [٢]

فقد تداخل النص الشعري مع المثل العربي (ما أشبه الليلة بالبارحة) [٣] ، فالرصافي يوظف المثل القائل ان الشر متأصل بعضه مع بعض لا ينقطع عن سابقه ، ونظرته المتشائمة للحياة ، جعلته ينظر بهذا المنظار القاتم وفق رؤاه التي خبرها في حياته التي عاشها وهو يرى الظلم الذي أصاب العباد والبلاد ، جراء الجهل والظلم والاضطهاد ، والذي نتج عنه انتشار الشر داخل المجتمع المحافظ الذي لا يعرف الظلم سابقاً ، فاستلهم دلالة المثل في تساوي الناس في الشر والخديعة ، وخص البارحة لقربها منه ، فما أشبه ليلة البارحة في اللؤم ، فالناس كلهم شر أصلهم واحد ، لا يختلفون عن بعضهم الا قليل .

إن عملية الإحلال والإزاحة التي حصلت على صعيد الصياغة جاءت متلائمة مع سياق النص اللاحق في توجيه دلالته الوجهة الخاصة به ، إذ نجد ان النص الشعري حمل دلالات الشر المتأصل في الناس ، فهو يمثل الهلاك والموت وهنا يظهر لنا إبداع الشاعر في قدرته على استثمار الصورة ودلالاتها التي يحملها النص ، فجاء استعمال مفردات المثل منسجمة انسجاماً كاملاً وواضحاً مع النص الشعري ، حيث أعطته بعداً أكثر وضوحاً وإثراء وخصوبة للنص الشعري ، وانفتاحه على عوالم واسعة ومثيرة [٤] .

وتختلف الألوان والطرق التي أتى بها الرصافي في تضمينه للأمثال ، ما يدل على امتلاكه ثروة لغوية هائلة ، وقدرة عالية على التلاعب بالتراكيب والألفاظ بما يخدم فكرته ، فضلاً عن حمولاته المعرفية الكبيرة التي إنماز بها ، وحنكته في سبك أبياته الشعرية ، ونلاحظ ذلك في حديثه عن شعره والدفاع عنه والعناية بصياغته وقوة تأثيره ، يقول :

لذاك جعلت الحق نصب مقاصدي وصيّرت سرّ الرأي في أمره جهرا
وجرّدت شعـــــري من ثياب ريائه فلـــــم أكْسُـــه إلا معانَيــه الغُرّا [٥]

---

١ – ينظر : معروف الرصافي ، حياته وأدبه السياسي : ٩٧ .
٢ – ديوانه : ١ / ١٢٢
٣ – مجمع الأمثال : ٢/ ٢٧٥
٤ – ينظر : الشعراء العرب في القرن العشرين : ٥١٥ .
٥ – ديوانه : ١ / ٨٨

لقد استثمر الرصافي المثل القائل (جعلته نصب عيني) [١] ، مستثمراً إياه استثماراً يختلف عن ألفاظ المثل الأول في تغيير ألفاظه لتتماشي مع وزن البيت الشعري ، فجعل الشعر جل اهتمامه ومقاصده ، وانكب على صياغته والعناية به ، وترك الغفلة والسهو في نظمه ، كي لا يفوته منه شيء من أركانه ، ويكون دائما في يقظة حتى يتقي الشبهات في شعره ، فاستطاع الشاعر بناء بيته الشعري وفق رؤيته وموقفه النفسي الذي وسع تطلعاته ، فاستطاع الشاعر الانفتاح على التراث العربي ابتغاء منه في إضاءة الحاضر بالماضي المثقل بالحمولات المعرفية ، والتجارب الإنسانية ، والصور البلاغية الناصعة ، التي تعطي العمل الأدبي بعداً متجدداً وأكثر التحاماً .

ومن الملاحظ أن الشاعر الرصافي أستخدم أسلوب البساطة والتسهيل في أشعاره ، مبتعداً عن الألفاظ الخشنة المتكلفة التي يمجها الذوق السليم ، فاستطاع من خلال ذلك تجسيد الصورة الشعرية ، بهذا الأسلوب الرائع الذي نزل به الى عامة الناس ، فيفهمه الأديب وغير الأديب كما في قوله :

إن للعلم في حروب بني العصـ ـر لَيأساً يفوق بأس الحديد
إذ بدا بأسه الأشدّ فأنسى كل بأس من الحديد شديد [٢]

يستدعى الشاعر المثل القائل ((ان الحديد بالحديد يفلح)) [٣] ، ورسم لنا من خلال استجابته للمثل ، واستعمله في تشجيع قومه على العلم والقوة بالحديد ، وتأكيده على أن الحق لا يؤخذ الا بالقوة والعلم والمنعة .

ومن الألفاظ والمعاني السهلة التي أعتمد عليها الشاعر في أسلوبه وقربه من أفكار الناس والمجتمع اعتماده على المثل الدارج بين العامة ((بكاء التماسيح)) في قوله :

من ليس يُبْكيه من أبناء جِلدته فكاؤهم فهو من جنس التماسيح [٤]

فينوع الرصافي في توظيفه للمعاني من الأمثال ، فعندما تحدث عن الأرملة المسكينة من عامة الناس وما أصابها من الجوع والضنك وشطف العيش ، ولا تجد نصيراً لها يؤويها ويرحمها اومأ إلى هذا المثل من دون ألفاظ متكلفة أو صعبة الفهم لكي يحقق مبتغاه وتوصله بسهولة لعامة الناس ، وان بكاء بعض الناس عليها هو بكاء التماسيح .

إن تضمينات الرصافي المثل في أبياته لها أهمية كبيرة في شعره ، فلم يكن إقحامه للمثل بصورة عشوائية ، وإنما تصبح اللغة مساحة واسعة من الدلالات والمعاني اللامتناهية لتشمل مفردات المثل العربي وتستوعبه استيعاباً تاماً ، فلما أعدم الضباط الأربعة ، نظم الرصافي قصيدة تعدُّ من غرر القصائد عنوانها ((الافول المشرق)) [٥] ، وفيها صب جام غضبه وسخطه على الذين غيبت أجسادهم تحت الثرى ، ظلما وبهتاناً وزورا يقول :

أيّها الأنجم التي قـــد رأينا عبراً فـــي أفــولها كالشموس
شنقوكم ليلاً على غير مهل ثمّ دسّوا جسومكم في الرموس
في سبيل الأوطان متّم ففزتم بأجـــلّ التحميـــد والتقديـــس
إن يومـــاً بـــه نعيتم إلينا يوم بؤس كيوم حرب البسوس

---

١ – مجمع الأمثال : ١ / ١٦٣ ، جمهرة الأمثال ، للعسكري : ١ / ٢٩٧ .
٢ – ديوانه : ٢ / ٦٤٢ .
٣ – مجمع الأمثال : ١ / ١١
٤ – ديوانه : ١ / ٣١٦
٥ – ينظر : معرف الرصافي ، حياته وأدبه السياسي : ١٩٠ .

قد حكاها طولاً وشؤماً وبغياً وتلظّى بحرّ نار المجوس [١]

فالشاعر استعان بالمثل القائل ((اشأم من ناقة البسوس)) [٢] ، فاتخذت العرب هذا المثل رمزاً للشؤم والخراب والدمار ، فالشاعر أسس على هذا المثل ليبدي مدى الشؤم الذي أصاب الناس بعد مقتلهم .

وتميز الرصافي في بعض الأحيان في تضمينه الأمثال على الدلالة الإيحائية للمثل مع حذف جميع أجزاء المثل ، سوى قرينة دالة عليه ، فقد استوعب المثل العربي وتشربه ، ثم أعاد بناءه بسياق لغوي جديد للتعبير عن المعنى نفسه بأسلوب شعري مختلف عن الأول ، وملائمة الحالة التي يريد ان يعرضها الشاعر من ذلك قوله :

يا منظراً أضحك ثغر الدجى وورد سحبان إلى باقل [٣]

فقد استثمر الرصافي مداولات مثلين داخل النص الشعري ، تصور حالة المجتمع وما تحول اليه من ظلم الناس وعدم إنزالهم منازلهم الصحيحة ، حتى أصبح (سحبان وائل) وهو من الفصحاء العرب وداهيتهم في الكلام الى (باقل) إشارة الى جهالة (باقل) وعدم قدرته على الكلام وصعوبة نطقه في الكلام ، فأشار الى المثلين المختلفين داخل نصه الشعري في عجز البيت الواحد ، وهما ((أخطب من سحبان وائل)) [٤] ، و ((أعيا من باقل)) [٥] ، فقد تحول سحبان الى باقل ، فشكل محاور قصديته التناقض في الشخصية ، فكانت دلالة التضمين في قول الشاعر دلالة إيحائية أفادتا القرينة الدالة عليه .

وانطلاقاً مما سبق يتضح ان الرصافي كان واضحاً ومميزاً في شعره وتضمينه للأمثال شكل رافداً ينهل منه ويفيض عليه من أفكاره ومعانيه الشيء الكثير ، فالأمثال تعد من أنجح الوسائل التعبيرية ، لما فيها من ألفاظ وعبارات مكتنزة بالمفاهيم والقصص ، والحكم التي تؤثر في المجتمع بشكل مباشر ، لسهولة حفظها من الذهن البشري ومداومة تذكرها ، وكل ذلك يسهل مهمة الشاعر في تضمينه للأمثال والاستفادة منها وقدرته على التواصل معها واستدعائه لأفكارها ومعانيها ، ليؤسس منها موقفاً يوقظ المتلقي ويؤدي الى زيادة تفكيره . [٦] .

---

١ – ديوانه : ١ / ٤١٨ .

٢ – ينظر مجمع الأمثال : ١ / ٣٩٠

٣ – ديوانه : ١ / ٣٨٤

٤ – مجمع الأمثال : ١ / ٢٤٩

٥ – المصدر نفسه : ٢ / ٤٣

٦ – ينظر : مملكة الأصوات ومرآة الفتوحات ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، مجلد ٣ ، ع١ ، ٢٠٠١ م : ١٨٤

الخاتمة

إن تضمين الأمثال للشعر يشكل رافداً مهما للشاعر ، إذ جعل شعره يزخر بالمعاني والصور الشعرية ، والمعاني الرحبة ، فكانت الأمثال العربية مبعثاً الدلالات الموحية والمكتنزة والرموز الخصبة ، ولما تحمله من طاقات وحمولات معرفية ترفد التجربة الشعرية .

لقد وجد الباحث براعة الشاعر في تضمينه للأمثال ، حيث كانت تضميناته متواشجة ودالة على المعاني الشعرية ، وتؤدي أهدافها وأغراضها بدقة وانسجام وعمق التأثير ، وتبدو أحياناً ، وكأنها جزء حقيقي من القصيدة الحديثة .

لقد سجلت الأمثال التوجيهية والإرشادية في شعر الرصافي حضوراً واضحاً ، وبنسبة أكثر من بقية الأمثال الأخرى ، لأن الأمثال اصدق في وصف أخلاق الأمة وتفكيرها وعادتها ، فهي تصور المجتمع وشعوره ، وتعكس ضروب الحياة ، وفنونها السياسية ، والثقافية ، والاجتماعية .

لم يتوان الرصافي في تحوير معاني الأمثال إلى معان ذات دلالات دنيوية كالمديح والهجاء مثلاُ ، وذلك ضمن آلية التحويل من خلال إيجاد أوجه الشبه بين الفكرة الدينية والفكرة الدنيوية بما ينسجم مع مضمون النص الجديد .

تبين ان الرصافي في تضمينه للأمثال ، اتخذ في ذلك مسلكين مميزين الأول : ان تأتي بالمثل دون تغيير في ألفاظه ومعانيه ويقحمه داخل النص الشعري دون تغيير ، إما الطريقة الثانية : كان يدور حول المثل ولا يأخذ سوى الفكرة ويجعلها منطلقاً مركزياً ينطلق منه لبناء نصه الشعري بألفاظ تختلف اختلافاُ جذرياُ عن الفاظ المثل وتراكيبه .

سجل البحث عناية الرصافي بالشرح والتفصيل والتحليل مضيفاً معاني الدقة ونوعاً من الروعة والحسن والفذلكة والتطوير مع مسحة تشاؤمية قليلة في شعره ، بأشكال منوعة مع نصوص شعرية بعينها لا سيما تلك التي تحظى بالقيمة الفنية العالية .

لم يكن تضمين الرصافي للأمثال منحصراُ عند حدود الأمثال الجاهلية بل تعداها الى الأمثال الإسلامية ، والعامية ، والحِكم ، وقد وجدنا في نتاج شعره ما يمثل ذلك ، على ان انسياب الأمثال الجاهلية في شعره كان أكثر من انسياب الأمثال الإسلامية فيه .

لم يكن توظيف الأمثال مما ابتدعه الشعراء المعاصرون ، اذ عثرنا على إرهاصات له في الشعر الجاهلي وتطور بعض الشيء في الشعر الإسلامي والأموي واوجد له مكاناً في الشعر العباسي ولا سيما شعر المتنبي والمعري وأبي فراس الحمداني وغيرهم ، غير ان توظيفه في العصر الحديث كان أكثر تنوعاً وفنية وسعة وكثرة .

المصادر والمراجع :

١- القران الكريم .
٢- احمد شوقي ، امير الشعراء ، ج١ ، ايليا الحاوي ، دار الكتب اللبناني ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠ م .
٣- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٧ م .
٤- الالة والأداة وما يتبعها من الملابس والمرافق والهنات تأليف معروف الرصافي، تحقيق عبدالحميد الرشودي وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، ١٩٨٠.
٥- الأمثال في القرآن الكريم، تأليف : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: إبراهيم محمد ، دار النشر : مكتبة الصحابة ، ط١، طنطا ، مصر ، ١٤٠٦.
٦- البيان والتبين : تأليف ، الجاحظ ، تحقيق: فوزي عطوي ، دار النشر: دار صعب – بيروت.
٧- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: الدكتور محمود عكاشة، ط١، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .
٨- التعبير النفسي في الامثال ، يوسف عز الدين ، مصر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٢ .
٩- التناص في شعر ابي العلاء المعري ، ابراهيم مصطفى محمد الهون ، عالم الكتب الحديث ، اربد ، الاردن ، مطبعة حلاوة ، ٢٠١١ م .
١٠- جمهرة الأمثال ، تأليف: الشيخ الأديب أبو هلال العسكري، دار النشر: دار الفكر – بيروت – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
١١- الخصائص البنيوية للمثل الشعبي ، محمد السموري ، بحث منشور ، مجلة البوان ، ع٦ ، دمشق ، سوريا ، ٢٠٠٦ .
١٢- دراسات في الشعر العربي المعاصر ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٧ ، ١٩٧٩ م .
١٣- الدرة الفاخرة في الامثال ، عبد المجيد فطاش ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ م .
١٤- ديوان الرصافي : تاليف معروف الرصافي ، مراجعة مصطفى الغلاييني ، موسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، القاهرة ، ٢٠١٢ م .
١٥- الشعراء العرب في القرن العشرين ، حياتهم شعرهم اثارهم ، عبد الروضان ، ط١ ، الاهلية للنشر والتوزيع ، وسط البلد ، الاردن ، ٢٠٠٥ م.
١٦- علم اللغة للقارئ العربي ، محمود السعران ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط٥ ، عالم الكتب ، مصر ، ١٩٩٣ .
١٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب ، دار النشر: دار المعرفة – بيروت.
١٨- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، تأليف : البكري .
١٩- قراءات في الشعر العربي الحديث والقديم ، هاني نصر الله ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، ٢٠١١ م .
٢٠- لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار النشر: دار صادر ،ط١، بيروت .

٢١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تأليف: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار النشر : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ،١٩٩٥م .
٢٢- المثل في الشعر الاندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ، بشار خلف عبود ، رسالة دكتوراه ، كلية التربية ، جامعة الانبار ، ٢٠٠٤ .
٢٣- مجمع الأمثال، تأليف: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار النشر: دار المعرفة – بيروت .
٢٤- المزهر في علوم اللغة وانواعها : جمال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، شرح وتعليق محمد احمد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي وشركاه ، مصر ، د. ت .
٢٥- المستطرف في كل فن مستظرف مجلدين، تأليف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، تحقيق: مفيد محمد قميحة ، دار النشر: دار الكتب العلمية ، ط٢ ، بيروت ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .
٢٦- مظاهر التناص الديني في شعر احمد مطر ، سليمان عبد المنعم فارس ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين ، ٢٠٠٥ م .
٢٧- معروف الرصافي ، حياته وادبه السياسي ، رؤوف الواعظ ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٦١ .
٢٨- مقارنة دلالية بين الامثال العربية والأمثال العامية ، علاء إسماعيل الحمزاوي ، كلية الآداب ، جامعة الامينا ، ط١ ، مصر ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
٢٩- مملكة الأصوات ومرآة الفتوحات ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، مجلد ٣ ، ع١ ، ٢٠٠١ م .
٣٠- المُنَجَّد في اللغة : ابي الحسن علي بن الحسن الهنائي المشهور بكراع (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق : د. احمد مختار عمر ، د. ضاحي عبد الباقي ، عالم الكتب القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٨ م .